إمرأة مسكينة

تقلبت الام على الجنبين أغلب الليل ، وقامت قبيل الفجر ـ كما تفعل يوم سفرها بقطار الظهر ـ ومشت محمومة الى الحمام لتتوضأ ، لا تبالي على غير عادتها بوقع قبقابها على البلاط ، يود قلبها ان تستيقظ فتحية زوجة ابنها قبل موعدها ، يغيظها منها انها تؤوم الضحى ، بل تود ان يستيقظ كل من في البيت ، لتجتمع الاسرة كلها من اول النهار، وتعدّ البزازات لحفيدها ميمي ، وتأتيها شقيقته آمال فتأخذها في حضنها وهي على سجادة الصلاة ، وتمد يدها من تحت الطرحة البيضاء وتربت على رأسها وتدعو لها وترقيها وهي تتفل حولها . انها أصبحت على غير مألوف طبعها لا تطيق الوحدة ، وامامهم يوم مزدحم وزيارة للمستشفى واكثر من مشوار ، وحين تمتمت والماء ينصب على كفيها : « أشهد ان لا اله الا الله » كان وجهها لا يزال ينطق بالتضعضع، يختلط الاعياء فوقه بتجهم العجوز ، ولكنها حين اضافت : « وأشهد ان سيدنا محمدا رسول الله » طفرت الدموع السخان فجأة من عينيها واصبح لها وجه طفل مسحته وبللته أواخر نوبة من البكاء . ان سيرة الرسول شفيع امته يوم القيامة تذكرها دائما بالموت ، وتمس قلبها بحزن حنون ، حتى وهي في عرس ، فكيف بها اليوم وهي ضائعة مفمومة ؟ ورفعت كفيها وجبهتها الى السقف ، كأن نظرتها لا تراه وتنفذ منه الى السماء ، وأنّت بصوت متهدج ، بسؤال هو في حقيقة الامر دعاء وابتهال :

ـ يا ترى يا ابني يا فؤاد كيف حالك اليوم وكيف اصبحت ؟

بعد ساعة كانوا قد فرغوا من الفطور بسرعة وبغير نفس ، بلع لا اكل ، ووقفت فتحية امام المرآة ترتدي ملابسها وتستعد للخروج ، انها أقصر قامة واكثر بدانة من صورتها لدى الغرباء ، أحذيتها كلها ذات كعب عال ، والمشد الذي تلبسه بجهد يضغط جسمها الفاشل بعد ولادتين وسقط ثلاث مرات ، الى خصر ضامر فوق عجيزتها ، العينان اللوزيتان من اثر الكحل تراهما في المرآة في صباحها دائرتين ضيقتين، واحمر جفناهما من السهر ومسح المنديل ، وان بقي الانسان الاسود هو هو في يقظته وصموده وتحفزه وعميق فهمه ، هذا الماء المنعقد له اشعاع جوهر كريم لا يتحطم ، واجهتها مشكلة قديمة في صورة جديدة لم تصادفها من قبل ، ليس الخيار هذه المرة بين ذوق وذوق ، أو لون ولون ، بل بين وقع ووقع ، أي ثوب ترتدي ؟ انها زوجة وقعت في نكبة ، وزوجها فؤاد مريض لا هو ميت ولا هو حيّ ، هي ذاهبة لاستجداء عطف رئيسه ، وسيحيط بها كثير من زملائه ، فهل الانسب لها ان تخرج كعادتها في أتم زينة فيكون من وسائلها اغراء الانثى وهو سلاح لا يخيب ، وتبرهن فوق ذلك انها امرأة من معدن أصيل لا يصدأ بسهولة ، ستلحظ العين شجاعتها كما تلحظ فتنتها ، أم تخرج بلا زينة ، مهملة الثياب والشعر ، فينطق حالها بالوفاء وانشغال البال والتعاسة ، فتكون أقدر على استدرار العطف ، هي تعلم ان أفئدتهم لن تنشرح الا اذا رأوها تذرف الدمع او على الاقل تشيح بوجهها وتمسح عينيها بالمنديل ، لهذه الفكرة صعبت عليها نفسها ولعنت قسمتها السوداء ونطقت بانفجار المحنق :

ـ يا ترى يا ربي ماذا سيحدث لنا غدا ؟!

وأخيرا اهتدت الى الحكمة ، خير الامور الوسط ، لبست المشد وثوبا جميلا فوقه معطف قديم ، تركت شعرها وكحلت عينيها ، فكحل لبان الدكر نوع من الدواء ، واختارت حقيبة يد صفراء كمسارية المترو، عميقة ، لها حمالة تعلق بها على الكتف ، تشبه حقيبة كمسارية المترو، توحي انها قد تضع فيها وهي راجعة بعض لوازم البيت ، ونبهت على ذاكرتها أن تشتري في طريقها عرضحال تمغة ، فمن يدري ؟

دخلت على حماتها لتسلم عليها فوجدت آمال مكورة لصيقة بجدتها ، ففرزتها بطعن من اصبعها تحت الابط وهي تقول :

ـ هيا هيا الى المدرسة ، انا لا احب الدلع ، ماذا حدث حتى تبقي بالدار ؟ بابا بخير وغدا يعود الينا بالسلامة ، من يراك يظن اننا في مأتم ، أنا أكره التفويل .

وجهت اليها آمال نظرة استرحام وعتاب ، واحست ان جدتها تود ان تدافع عنها ، وحمدت لها انها لم تتكلم ، حديث القلوب يغني عن الافصاح ، لم تبال فتحية بنظرة ابنتها ، ولعلها لم تقو على مواجهتها فالتفتت الى حماتها وقالت بصوت مسكين قد هبطت حدته :

ـ أنا خارجة يا نينا ، ادعي لي ، وارجو ان اعود بسرعة ،لنذهب ونلحق الجماعة ساعة الزيارة قبل الظهر .

وقبل ان تخرج ، ارادت ان تطمئن على ميمي ، وجدته راقدا على ظهره في مهده ، يرفس بيديه ويلكم بقدميه ، ويضحك للملائكة وبناغيها ، لا يعرف بعد معنى اليوم ومعنى الغد . مالت عليه ، كادت تقطع وجهه تقبيلا وان أحنقها منه هذه الابتسامة في غير أوانها ، هي خلل في الطبيعة ، تكاد تنطق بالسخرية من هياجهم وتخبطهم ، انه يتعالى عليهم بانه الذكي الوحيد بينهم ، وان الحل قد خفي عنهم دونه وهو واضح كل الوضوح ، وهتفت له بذراعها وهي منصرفة :

ـ نور الله في برسيمه !

* * *

لما خرجت انضم نسيم الصباح الرطب الى عزمها في دفعها الى المسير بخطى سريعة قصيرة ، رأسها محني على صدرها ،ذهنها مكوك

اكثر من قدميها سرعة ، تارة يجري الى الامام وتارة الى الوراء ، انها تحس بتعب شديد لانها لم تنعم بنوم هادىء منذ ليال عديدة ، هي لم تألف الرقاد وحدها في فراش شاغر ، الوحدة فيه تؤرقها ، حتى في الليالي التي تعقب الخصام في النهار فيقاطعها فؤاد ، ويحرن ويلتزم الصمت وتعرض هي عنه . كان يكفي أن يرقد بجانبها ولو أدار لها ظهره حتى تستمد من سماع صوت تنفسه الاحساس بدفء جسمه انيسا يعيد النوم لعينيها ، سرها وهي تناجي نفسها وهي ماشية ان تذكر انها كانت هي المبادرة دائما بالصلح ، وتنسى كل ما حدث . هي سعيدة لان الله سبحانه خلقها بأعصاب قوية .. هيهات ان تطبق عليها الهموم ، حتى لو جاءتها لا تتركها تنفذ الى قرارة نفسها فيكون البلاء مزدوجا : هموم ونفس مريضة ، بل تبقيها في ميدانها الخارجي تصارعها فيه وتبقي نفسها ناجية ، تنزلق عليها هذه الهموم كالماء فوق الرخام ، انها تعلم ان اصحابها واهلها يصفونها بالشجاعة والثبات ، اما تطوعهم بوصفهم لها في غيبتها انها مع ذلك انانية قاسية فاتهام باطل ، ما هي في الحقيقة الا امرأة عملية ، عقلها في رأسها ، اما فؤاد وان سارع هو ايضا للصلح ، وارتاح له ، وحمد لها اعادة الكلام ولو نفاقا لبرهة الى نفسه قبل الخصام ليستطيع ان يأكل ويشرب وينام ويدخل ويخرج ويقلع ويلبس ، الا انه كما تحس منه يبقي ذكرى الخصام محقونة في نفسه ، يكتمها ولا ينساها ، ينفجر احيانا ويقول لها انه لا يستطيع ان يهضم او يغفر الاسية تنزل به بلا جريرة منه ومن الباب للطاق ، ومتى ؟ في عين الوقت الذي يتوقع منها الاكرام والشكر ، او في عز الوقت الذي تكون فيه اعصابه متوترة محتاجة أشد الاحتياج لكلمة طيبة ولو كاذبة تنزل على قلبه بردا وسلاما ، الله يخرب عقلها ؟ انها امرأة لا مروءة عندها ، الله يخرب بيتها .. هكذا وهكذا .. هياج صبياني وحماقة فارغة وغرق في شبر ماء ، لماذا لا يقتدي بها ؟ الخصام الجديد عندها حادثة طارئة ، تأخذ قسمتها وتتمشى ، اما عنده فارث عتيد وذيل سلسلة طويلة تفل العنق ، لان الصلح في كل مرة يتم في حكمة بتغليب رأيها على رأيه ، وانهزامه امامها طلبا للسلامة ، وما عيب ذلك ؟ وهل لفؤاد رأي يوصل لبر ؟ ما معنى التمسك برأي خاطىء ؟ لمجرد الاستبداد ؟ انه رجل لم يتقدم به العمر منذ طفولته ، لم تحسب يوم لقيته في منزل احدى قريباتها انه سيجري وراءها ويسيل لعابه ويلح عليها ان تتزوج منه لانه ميت في دباديب رجليها ، كانت فتحية تتمنى ان لا يندلق عليها كل هذا الاندلاق ويضع عقله في رأسه ويتم دراسة الحقوق وينال الشهادة ، فهمت بعد ذلك انه يهرب اليها ويلوذ بها من احضان تخنقه بها أسرة يأكل بعضها بعضا ، أسرة كبيرة عتيقة متشابكة لا تعرف فيها ابناء الاعمام من ابناء الخالات من كثرة زواج بعضهم لبعض جيلا بعد جيل ، والنزاع كله على ثلاثة بيوت مخلخلة في حي الخليفة وعشرين فدانا من ارض أتلفها الاهمال لا يعرف احد منهم حدودها ، انها لا تندم الى اليوم ان انعطف له قلبها : أدب جم أصيل ، وجسم رياضي لدن ، وحياء لذيذ يفمر الوجه عند الكسوف بلون الورد ، وعين منكسرة عسلية صافية مبرأة من الخيانة ، والبجاحة ، مأمونة العاقبة ، وهو فوق ذلك ابن فن ، حين يكون رائق البال يعزف على البيانو أغاني ضحلت من شدة ابتذالها فينطقها من جديد بشجن عميق لا يخلو من تقصع وشخلعة ، وكانت هي حين قابلته يتيمة الابوين تعيش في كنف جدتها ، ليس لها من سند او معين الا معاش زهيد عن ابيها ، أحست ان القدر يختارها لمعركة ، وانها هي وحدها القادرة على الانتصار فيها . انها لا ترى بأسا من ان تعيش معه في مبدأ الامر على ايراده الضئيل الى ان يأخذ الله بيده ، فقبلته ، ولم تنزعج حين رأت هذا الفتى الفاره يبكي بين يديها ليلة الدخلة وينهنه كطفل ، وفوجئت بأن هذا الطفل المدين لها بانقاذه يحاول في أيام الزواج الاولى ان يفرض عليها ارادته ، عجيبة ! لم يدم الصراع طويلا وانتهى بأن أسلم فؤاد اليها نفسه وطاعته وجيبه ، فهل طفت ؟ كلا ! بل وقفت بجانبه ، ادركت انه لن يقوى على مشاقة المذاكرة فاخرجته من كلية الحقوق وادخلته مدرسة اللاسلكي للطيران المدني وأصبح في غمضة عين في مركز مرموق وصاحب مرتب محترم ، وحل الرخاء وانقضت أيام الشدة ، الله لا يرجعها ولا يرجع اليوم الذي اضطرت فيه ان تبيع البيانو ، قامت بواجبها ، هي التي رتبت له بيتا ينعم بالعفاف والنظافة وضبط الميزانية ، وهي التي عمرت بيوت حي الخليفة ونجحت في فرز نصيب زوجها بحكم قضائي وأصلحت الارض فأصبحت جنة وسط خراب ، آذا كان الهيام قد بلغ حده مع الزمن ثم انقلب الى الفة ، ورابطة الزواج الى عشرة انسان لانسان لا انثى بذكر والهواية الى وظيفة ، فهذا امر طبيعي ، وهذا هو شأن الناس جميعا ، هذه هي سنة الحياة . ان مجيء الاولاد يعيد ترتيب القيم والهموم على نحو آخر ، جيل ينبغي ان ينسى نفسه ودلعه من أجل جيل جديد صاعد ، ان كانت قد نزعته من أسرة امه وأبيه حتى قبل القضية فلأن أقرباءه جميعا متعبون جدا ، ليس وراءهم الا النكد وخوتة الدماغ ، يكفيه لكي لا يشعر بالوحدة انه اصبح لا يخرج الا رجلها على رجله ، لا تستطيع عين غريبة ان تلحظ أقل خلل في البيت ، اذا تسربت أنباء الخصام فمن تفليت لسان فؤاد لا لسانها هي ، انها تحب الثرثرة والشكوى ولا تأمن احدا قط على سرها ، كل انسان طبيعي غير خيالي لو كان مكان فؤاد لعد نفسه سعيدا ، كانت كلمة الحق تخرج أحيانا من فمها مؤلمة وان كانت صادقة ملفوفة بالضحك ، فتقول له وهي به ودود حدوب : بذمتك ، لو انك تزوجت غيري ، فتاة لعوبا من الصنف اياه ، أما كانت لعبت بذيلها وشلفطت حياتك وجابتك الارض وسممت عيشك بالشكوك والريب ؟

لو كانت مرآة الصباح لا تزال امامها في تلك اللحظة وهي ماشية لرأت فتحية على شفتيها ابتسامة مريرة ، فؤاد مغفل ! لكنها هي بسلامتها شيخة المغفلين . لقد ظنت في العهد الاخير ان الساقية تحت التعريشة ستظل تدور ، انقلب صرير عصلجة التروس مع الايام الى نغمل سلس مخدر ، واصبح الجلد منحسا لا يؤلمه سوط والحافر غليظا لا يجرحه مسمار أو فص حجر ، وقدور الماء تصب بانتظام في ارض لاهي غارقة ولا هي مشحطة ، اليوم كالامس ، والغد كاليوم . مغفل فؤاد ! هذه هي الطمانينة ، سر السعادة ، ينبغي ان يقبل لها اليد ظهرا لبطن ، ولكنه خلا بها ، خانها وانهار من وراء ظهرها بغير سابق انذار ، هل نسي ان لهما بنتا وطفلا رضيعا ؟

* * *

لم تكد فتحية تدخل فرع شركة الطيران في المدينة حتى احاط بها رجال تعرف اكثرهم ، سلموا عليها جميعا باعزاز وعطف شديد ، هم في سباق بينهم ، من منهم يقدم لها المقعد ومن منهم يطلب لها القهوة ، بلعت ريقها حبة ، وحين تكلموا لم يدر الحديث كما في البيت عن اليوم او الغد ، بل عن الامس ، وقفزت كلمة « كان » بجلالة قدرها الى اوائل الجمل ، وتلاحقت على اذنها عبارات كثيرة لا يمنع تشابهها من تكرارها :

ـ كان فؤاد والله رجلا طيبا لا يستحق ما جرى له !

ـ كان مع ذلك كثير الضحك ، يحب المزاح ، فماذا جرى له ؟ كنا جميعا لا نتصور ان نسمع مثل هذا الخبر ، شدة وتفوت .

ـ كان يرهق نفسه بالعمل وكنا ننصحه دائما ان يرفق بأعصابه.

ـ كان مع ذلك كثير الضحك، يحب المزاح ، فماذا جرى له ؟

أحست فتحية انها ليست زوجة بل ارملة تتلقى العزاء فرفعت رأسها وقالت برفق لا يخلو من حزم :

ـ ممكن اقابل البيك الرئيس الآن ام هو مشغول ؟

اجابها اقرب الرجال اليها :

ـ حتى لو كان غارقا في اذنيه فانه سيفضي نفسه في استقبالك.

اوصلوها لباب المكتب ، وأسمعوها وراء ظهرها همس بعضهم لبعض :

ـ امرأة مسكينـــة .. كان الله في عونها .

جلست فتحية امام الرئيس والحمالة معلقة في كتفها لم تنزعها وان جذبت الحقيبة ووضعتها في حجرها ، سيكـــون المنديل بذلك أقرب متناولا ، فكت ازرار معطفهـــا فانكشف ثوبها ، انها جـــاءت لغرضين : الاول : ان يسمح الرئيس بأن تكون الاجازة المرضية مهمـــا طالت بمرتب كامل ، قد يكون أنحل ان يتكرم ويغمض عينيه قليلا ويقرر ان المرض حدث اثناء العمل وبسبب العمل . والغرض الثاني : انيعمل على نقل زوجها الى مستشفى خاص ، من مخزن المتاع المهشم الى دار علاج تتكفل الشركة بنفقاتها .

* * *

سارع الرئيس ووعدها بأن يصرف لها مرتبا كاملا مدى ثلاثة اشهر، ثم بعدها ربنا كريم ، ولماذا نستعجل البلاء قبل وقوعه ؟ اما النقـل لمستشفى خاص فمتوقف على تقرير طبي من ادارة المستشفى الحكومي تقرر فيه ان المريض له مصلحة ولا ضرر عليه من نقله منها . ادركت ان نقبها جاء على شونه .

لما رآها تقوم وعلى وجهها علامات الضيق قال لها :

ـ اجلسي ، دعيني أفكر قليلا .

أحنى راسه وأخذ يخبط على المكتب بطرف قلمه ثم نظر اليهـا من تحت لتحت وقال :

ـ هل لديك شهادة مدرسية ؟

ادهشها هذا السؤال فلم تملك الا ان اجابت :

ـ لماذا تسأل ؟

ثم اسرعت تتم كلامها بلهفة :

ـ نعم ، لديّ شهادة .

ـ ما هي ؟

ـ شهادة معهد التدبير المنزلي .

أحست انه أصيب بخيبة امل وعاد بقلم يدق على المكتب .

ثم قال :

ـ شوفي يا ستي ، انني خاضع لتعليمات ، انما انا قولي مثل والدك او مثل اخيك الاكبر ، يهمني امرك ، فؤاد كـان عزيزا عليّ ، انني احب ان نحتاط للمستقبل وأرى انك قد تصبحـين في موقف لا بد لك فيه من الاعتماد على نفسك وحدك ، لذلك فكرت اذا كـانت لديك شهادة ان ابحث لك عن وظيفة في الشركة ، وربنا يســاعد ، لكن حكاية التدبير المنزلي هذه صعبة حبتين ، نحن في حاجة مثـلا الى سكرتيرة تعرف الآلة الكاتبة ، عاملة تليفون لا تليق بك .

أجابته بحسرة :

ـ حين يميل البخت يميل مرة واحدة ، على كل حال انا شاكرة.

وهمت تقوم ولكنه اجلسها من جديد وقال :

ـ سأقترح تعيينك مشرفـة على المواد الغذائية التـي تشتريهـا الشركة لاعداد وجبات الاكل في طائراتها لزبائنها ، فما قولك ؟ هـذه الوظيفة سنخلقها لك خلقا ، اكراما لك ، لانها ليست في ميزانيـــة الشركة ، تبقين بعقد مؤقت يتجدد ما دام زوجك في المستشفـى ، فاذا خرج وبحثنا له عن عمل اقل مشقة تكون حاجتك انت للوظيفـة قد انقطعت ، ونبقى في الداخل حبايب وفي الخارج حبايب ، فهـل تقبلين ؟ وهل تسمح ظروفك بالعمل ؟

فاجأها العرض ودار ذهنها دورة سريعة جمعت كل دوافع الرفض او القبول وهمت تقول له : « دعني أفكر يومين » ولكنها انتهت الى ان التردد حماقة كبرى ، ليست هي التي تتهيب الدخول من باب ينفتح امامها على غير انتظار وان كان من ورائه المجهول فاجابته :

ـ لم يكن في حسباني قط ان يحوجني الزمان للعمل ، انا بفضل فؤاد ست بيت ، وقتي كله له ولاولادي ، انه كان يحملني على كفه ويقضي لي كل رغباتي ، ولكني ادركت الآن من كلامك انه ينبغي لي أن أفيق لنفسي واحتاط للمستقبل . فانا اشكرك من كل قلبي وليكن من نصيبك دعاء أمه الصالحة ودعائي ، سأقبل الوظيفة ، وسأبذل كـل جهدي للفوز برضائك بحيث أبيض وجهك ولا تندم على تعييني .

قال لها : انني سأقترح وأجري وراء الاقتـــراح ، اما القرار فيصدره المدير العام للشركة ، اظن انني استطيع اقناعه ، ولكن زيادة الخير خيران . فهل تعرفين له واسطة ؟ ولكن لماذا ؟ اذهبي اليـــه بنفسك ، فحين يراك ويسمع قصتك من فمك لن يأبى قبول تعيينـك بهذا العقد المؤقت ، انه رجل كريم وابن حلال ، والانسب ايضـا ان تقدمي له شهادة بأن فؤاد سيبقى تحت العلاج ستة اشهر على الاقل .

خرجت ، وحين جاوزت الباب فكرت لاول مرة في حماتها فاطبقت فكيها وهمست لنفسها :

ـ سأعرف كيف انتصر عليها ، على كل حال هي زائرة مؤقتة ، هذه الكركوبة الحمقاء ام اللسان البارع في التنبيط الكتيمي والتلقيح من بعيد لبعيد مسيرها ان تتركنا في حالنا وتغور وتذهب للاقامـة مع ابنتها .

* * *

بقيت آمال في البيت ، فالوا لها انها اذا صحبتهم فلن يبقـى أحد يأخذ باله من ميمي ، ها قد جاء دورها وأصبح لهم اعتماد عليها فهي لم تعد صغيرة ، لا يعلمون ان وقع الكذب والاحتيال على قلبهـا أشد مرارة واثارة للسخط من الحقيقة البشعة ، انهم لا يريدون لها ان ترى اباها في المستشفى ، هي تعلم انهم يخشون ان تبكي وتحدث ضجة ولخمة وهم ينتزعون يدها من يده ، وهيهات ان يصدقوهـا اذا اقسمت لهم بانها ستظل صامتة عاقلة مؤدبة ، هي لا تريد الا ان ترى اباها ، لن تكلمه ، اللهم الا اذا بدأ هو اولا فتعرف نوع كلامه وتتدبر جوابها . انها واثقة انـــه لن يهيج من كلامها كما هـــاج في البيت آخر يوم ...

وعلى باب المستشفى وحسب الموعد تقابلت فتحية وحماتها مع بقية الاسرة ، آخ شقيق نفؤاد وأخوان لاب وأخت لام ، ثم عدد غير قليل من زملائه في الشركة ، في ايديهم جميعا لفائف الهدايا ، بعضهم بادي الشجاعة ، وبعضهم يكتم الخوف ويتمنى ان تنتهي الزيـــارة بسلام ، وبعضهم يصبر نفسه بأن هذه الزيارة الاولى تمرين محمـود وان كان ثقيلا يعينه في المستقبل . ودهشت فتحية حين وجدت بيـن الجميع عبد الرحيم ابن خالة ابن عمها ، انها لم تره منذ زمن طويل ، فكيف سمع وما الذي أتى به ؟! استأذنت فتحية بعد الزيارة منالجميع وقالت آن لديها مسألة تريد ان تتحدث فيهـا مع مدير المستشفى ، فهموا ان همها يفوق همهم وان العبء كله واقع عليها وان النـــاس أسرار . دخلت على المدير بعد ان مكثت وقتا طويلا في حجرةالانتظار ، فركبتها النرفزة ولكنها تمالكت اعصابها وقالت له بهدوء ينـــاسب المقـــام :

ـ هذا هو اول معروف التمسه منك ، اريد ان تتكرم وتعطينـي شهادة بأن امام زوجي علاجا لا يقل عن ستة اشهر .

اجابها وهو يقلب بعض الاوراق ان العادة لم تجر بذلك ، وانـه من المتعذر الحكم على مدة العلاج .

أسرعت تقول :

ـ وما الضرر ؟ وماذا تخسر ؟ شهادة لا طلعت ولا نزلت ، انت لست مرتبطا بها ، اذا شفي فؤاد قبل الموعد فلن نجبرك ان تبقيـــه عندك ، انما هذه الشهادة تلزمني أشد اللزوم وتتوقف عليهـــا اشياء كثيـــرة .

رفع اليها بصره وتأملها ، تحولت نظراتها الثابتة الى غيـــام ، فأحنى رأسه وقال لها :

ـ حاضر يا ستي ، لا أحب اغضابك .

لما خرجت من عنده لامت نفسها على حـــدتها واعتزمت على ان لا تكرر هذه الهفوة .. هذه الحدة التي جعلتها تنسى ان تطلبالشهادة

التي تنصح بنقل فؤاد لمستشفى خاص ، ستطلبها منه في الزيارة القادمة .

وادهشت فتحية مرة اخرى بسبب عبد الرحيم حين وجدته ينتظرها على باب المستشفى ، وسار بجانبها ، وكان هو البادىء بالكلام :

ـ لم أرك منذ دهور يا فتحية .

ـ أنت لا تسأل عنا .

ـ بل انت التي تكبرت علينا لاننا فقراء .

ـ هذه اوهام من عقلك الوسخ ، ربنا يحمينا من شر أفوال الناس امثالك .

ـ على العموم أنت في حاجة لمن يساعدك الآن ، انا تحت امرك وفي اي ساعة تطلبينني تجدينني .

قالت في سرها : ما اكثر الوعود هذه الايام وما أقل الوفاء !

ـ اما تزال في وزارة الاوقاف ؟

ـ كما أنا ..

دب في قلبها احتقار له ، انه لم يتغير ، هو دائما له عقليه الخادم ونفسيته ، يحب التمسك وأطراف الموائد . وان اكل لقمته حامدا شاكرا ، ذهنه بلا اصابع ، ويده غبية ، ولسانه ملجم ، لو اوقفته وراء الستار لما بصت عينه من خرم ، وأحدث آرائه هي اخر ما سمعه ، لا عجب ان عوضه المنان بصحة جسمانية مثل الحديد، كانت تلعب معه وهما طفلان ، فكانت هي التي تركبه وتؤذيه وتضربه فلم يكن يغضب بل ينظر اليها باعجاب ، رضاؤه عن نفسه وقف على رضائها هي عليه ، ثم لما كبرا فرقت الحياة بينهما وان كان يزورها احيانا مع الاعياد ، هذا الموظف الصغير في وزارة الاوقاف يعد نفسه من دلاديل الست ومحاسبها . قالت فتحية في سرها : ولم لا ؟ ان الله ارسله لي عند الحاجة ، سيكفيني مؤونة مشاوير كثيرة ثقيلة . وابتسمت في وجهه . وخيل لهما لحظة ان الزمن تراجع الوراء الى حوش كبير في منزل قديم تلاحق فيه صبية بضفيرتين صبيا بجلابية .

* * *

لم تقترب مدة العقد المؤقت من منتصفها حتى كانت فتحية قد أصبحت مسمار المكتب . اعتادت اول الامر ان تصل كل صباح في موعدها ، منهكة لم تكمل زينتها ، كان الله في عون ست مكافحة مثلها ، اذا كان اليوم هو صبيحة يوم الزيارة الاسبوعية بدأت اولا باذاعة نشرة اخبار صحة فؤاد ، هذه المرة حالته لم تتغير ، هذه المرة هو احسن ، هذه المرة حالته تأخرت قليلا ، لا معنى تهذا التناقض الا ان الحالة مهيبة ، ولعل هذه النشرة هي التي أغنت الزملاء ـ زملاءها هي الآن ! ـ عن الذهاب لزيارته . فتحية تقول لهم بالفم المليان انهم قاموا بواجبهم وزيادة ، الدورة والمتمة على حضرات الاخوة والاقارب ، هل يتصور الزملاء انها تذهب فلا تجد أحدا منهم ، ولا صريخ ابن يومين ، اين الاخ الشقيق ؟ اين الاخوان لاب ، اين الاخت لام ؟ كل منهم فص ملح ذاب ، أما الام فتأتي مرة وتمرض هي مرة .. وحين تقابلها لا تكلمها . لماذا ؟ هل قتلت لها قتيلا ؟ ثم لا تكاد فتحية تفرغ من هذا الكلام وتبدأ العمل حتى يدب فيها وفي حجرتها كلها وقدة شديدة ، أوامر وتليفونات ودخول وخروج . فهمت الشغل بسرعة وأتقنته ، اصبحت معروفة في الشركة كلها وفي عمارة المكتب يعرفها البواب وعامل المصعد ، حتى الخواجه الساكن في الدور الاعلى سأل عنها حين رآها في المصعد ذات يوم تحمل في يد ملفا وفي يد رغيف توست وأقة موز ، قال له البواب : « واحدة ست مسكينة تجري على عيالها ، برافو عليها ! » . لم تعد فتحية تبالي بعبارة ست مسكينة التي لاحقتها منذ ان دخلت الشركة ، هي لا تضيق ولا تسر بها ، بل هي تضعها في جيبها مفتاحا صنعه لها الآخرون قبل أن تصنعه هي لنفسها تستعين به على فتح الابواب التي لا تستجيب للطرق الاول . هذه العبارة هي التي أعانتها على تحسين علاقتها مع أغلب موردي الشركة ، لم يتقدم احد منهم ضدها بشكوى من مجهول ، لم يكن أقل نفع العمل تها انها فقدت بدانتها ، واصبحت تلبس المشد بسهولة، كانت في أول الامر ست بيت ثم موظفة ، العمل في المكتب مأثر بحالتها في البيت ، فأصبحت موظفة ثم ست بيت ، حالتها في البيت متأثرة بظروف العمل في المكتب ، وقليلا قليلا بدأت عنايتها بزينتها تزداد ، وحلت لها الدنيا وشعرت بشخصيتها في العمل تثبت وتسيطر ، سعادة كبيرة تخيفها في قراره نفسها ، بل بدأت من فرط الثقة تتدلع وتأتي للمكتب متأخرة ، ولكن الجميع وهم يلحظون عنايتها بأناقتها يشهدون انها تلتزم الجد ، وان سمعتها نقية . لقد عرفت كيف تحتفظ بكرامتها وتعامل الزملاء معاملة الند للند لا شأن فيها للجنس ، انها ليست مغفلة ، قد انتبهت الى تيارات خفية تحت السطح ومبادىء مغازلات متسترة ، ولكنها عرفت كيف تقضي على هذا العبث كله ، انها وقد رتبت في الظل الاحتياطي المجهول الذي لا يخون ولا يفضفض ليست في عجلة من امرها ، هي عاقلة متحكمة في أعصابها لن تخطو الخطوة الا اذا وجدت نفسها في آخر الطريق المسدود ، وستكون خطواتها بعدها قليلة مرسومة وعند اشد الحاجة فهي لا تريد اذا سنحت لها الفرصة في العلالي ان تبدو في صورة امرأة متهالكة تنهدم عند اللمسة الاولى ، لانها تحب اذا آن الاوان ان تكون هي التي تجود وهي التي تقود .

* * *

ظنت فتحية بعد ان سالمتها الايام ان نشرة الاخبار لم تتغير كثيرا وان العقد سيتجدد بسهولة ، فاذا هي تفاجأ في آخر زيارة قبل نهاية المدة بطلب من مدير المستشفى ، ولما دخلت عليه اخبرها كأنه يزف اليها بشرى ان فؤاد دخل في فترة هدوء من المتوقع ان تكون طويلة ، واحتمالات النكسة بعيدة وانه بشيء من المسايسة في البيت لاسبوع او اسبوعين يستطيع ان يعود الى عمله .

اغبر وجهها وتكنها تمالكت نفسها وابتسمت وكادت تخطف يده لتقبلها ثم وقفت بين يديه مترددة معتذرة .. ان كان في هذه الدنيا كلها من يفهمها فلن يكون الا هو . وقالت بسرعة كأنها أعدت الجواب منذ زمن طويل :

ـ أنت سعادتك عارف أني موظفة ، وقد قررت الشركة ان ترسلني في جولة في اوروبا للاشراف على جميع موردي طائراتها في المطارات الاجنبية ، وسأسافر في الاسبوع القادم ، هذه هي فرصة العمر ، أعددت جواز السفر وكل التأشيرات ان أردت احضرها لك ، فاعمل لي معروفا واجل اخراج فؤاد شهرا واحدا ، ثم لا تنس انني اعيش وحدي في البيت وأحب أن اكون مطمئنة كل الاطمئنان ان لا يحدث لي اي خطر اذا خرج قبل الاوان واصابته في منتصف ليل نوبة من انهياج .. فانا أعمل وانا وحدنية وامرأة جار عليها الزمان .

نظر اليها مليا ، وذكر مقابلتها الاولى فاستدار وقال لها وهو يخرج من باب جانبي :

ـ حاضر يا ستي فهمت ...

* * *

ليست هذه اول كذبة في الحياة تصبح حقيقة . في اليوم الذي تم فيه تجديد العقد قدمت فتحية الاقتراح وجرت وراءه ، وفي أقل من اسبوع صدرت الموافقة على جولتها في اوروبا ، ونشرت الشركة في الصحف بين اعلاناتها صورة لاحدى طائراتها ، وعلى السلم فتحية في تايير اسود كلاسيكي تلوح بيدها وتبتسم لمودعين لا يظهرون في الصورة .. وكانت الرحلة الى اوروبا اول خطوة للعلالي ، وايضا اول ثمرة لهذا العلالي .. اذ كان مدير الشركة مسافرا بالطائرة ذاتها .

(القاهرة) يحيى حقي